من قصص الانتفاضة

في نابلس

ليلى وفرن الصمود

الإهـــداء

إلى نابلس وأهل نابلس الذين أحب . . إلى أبطال الانتفاضة مع عميق اعتذاري ، فأي عمل أدبي مهما كان لا يرقى إلى نقطة دم أو أنّة جريح أو معاناة معتقل . . . وعذري ان الكلمة تؤرخ الأحداث . . وتحفظ النضال وتبقى للأجيال .

المؤلفة :
روضة الفرخ الهدهد

رسوم عبدالرؤوف شمعون
الطبعة الثانية: ١٩٩٨

المؤلفة في سطور

- ولدت في مدينة يافا في فلسطين . ودرست في مدارس مدينة عمان . ثم نالت الثانوية العامة من مدينة رام الله في الضفة الغربية من الأردن .
- درست في كلية الصيدلة جامعة القاهرة . ثلاث سنوات بنجاح . وانقطعت عن الدراسةبسبب حرب ١٩٦٧ حين احتلت اسرائيل الضفة الغربية حيث الأهل .
- حصلت على شهادة الليسانس في الحقوق عام ١٩٧٣ من جامعة بيروت العربية . ثم التحقت لدراسة الماجستير في الجامعة اللبنانية .
- بدأت الكتابة للأطفال عام ١٩٧٩ ولها اليوم خمسة وعشرون كتاباً للأطفال وبعض القصص المسلسة . كما صدر لها كتاب ثقافة الأطفال في الأردن .
- عضو منتخب للهيئة الإدارية لرابطة الكتّاب الأردنيين .
- عضو تأسيسي وعضو الهيئة العمومية في المجلس العربي للتنمية والطفولة الذي يرأسه سمو الأمير طلال بن عبد العزيز .
- رئيسة جمعية أصدقاء الأطفال في الأردن .
- عضو الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال . وعضو مؤازر في جمعيات خيرية ونوادي اجتماعية في عمان .
- عضو منتخب للهيئة الإدارية لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة العاصمة .
- ساهمت في تحرير مجلة الأطفال الأردنية " وسام " الصادرة عن وزارة الثقافة والتراث القومي .
- عملت محررة مسؤولة عن ملحق الطفل الأسبوعي في جريدة الدستور الأردنية من عام ١٩٨٣ - ١٩٩٥م .
- تشارك في ندوات ومؤتمرات ومعارض كتب الأطفال على مستوى الوطن العربي .
- عضو في مؤسسة IBBY وهي المؤسسة الدولية لكتب الشباب والأطفال ومقر سكارتاريتها في سويسرا .
- نالت جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية عن كتابها " قافلة الفداء " .
- نالت درع سلاح الجو الملكي الأردني عن كتابها " أسد فوق حيفا " .
- نالت جائزة خليل السكاكيني لأدب الطفل وثقافته من رابطة الكتاب الأردنيين لعام ١٩٩٥م لمجمل اعمالها .
- متزوجة منذ عام ١٩٦٧ من المهندس حسام الدين طاهر الهدهد . ولها أربعة أبناء ذكور وبنت واحدة .

فَتَحَ « عبد الله » فرنَهُ .. رَفَعَ أكمامَهُ ، وضَعَ المريولَ على خصرِهِ ، ثمَّ بدأ يكيلُ الطحينَ وَيدُيرهُ في وعاءِ العجينِ الكبيرِ . لمْ يكنْ فرنُهُ فرناً حديثاً متطوراً ، لكنَّهُ كانَ فرناً صغيراً مرتباً يَخدِمُ أهلَ الحيِّ خارجَ مدينةِ نابلس القديمةِ .. وَضَعَ الطحينَ في العجَّانةِ ، أضافَ الخميرةَ والملْحَ وأدارَ صنبورَ الماء ، وبدأتِ الآلةُ تدورُ وتعجِنُ ..

هكذا هوَ عملُهُ .. يترُكُ بيتَهُ قبلَ أن يترُكَ أحدٌ بيتَهُ .. وَقبْلَ أنْ يؤذِّنَ الصبحُ أو تشرِقَ الشَّمسُ .. يذهَبُ إلى الفرنِ ، يعجِنُ العجينَ ، ويُغطيِّهِ ويتركُهُ ليتخمَّرَ .. يرتِّبُ ألواحَ الخشَبِ ، يحمي الفرنَ ، ثمَّ يذهبُ ليصلِّي صلاةَ الصبحِ في الجامِعِ .. وعندَما يعودُ تكونُ زوجتُهُ قدْ أرسلتْ إبريقَ الشَّاي المحلى معَ أبنتيهِ ..

« عبد الله البحش » فرانٌ أخَذَ مهنتَهُ عن أبيهِ وجَدِّهِ وهوَ لا ينسى كمْ حملَ في صِغرِهِ ألواحَ الخشبِ ، وكمْ رقَّ العجينَ أرغُفَ مستديرةً . لا ينسى كَمْ حملَ منَ الفرنِ أطباقَ الخبزِ لأهلِ الحيِّ ، وكم خبزَ مناقيشَ الخبزِ بالزَّعترِ والبيضِ وصَواني اللحْمِ والكُفتةِ ، وقد أصبَحَ عندَهُ اليومَ آلاتٌ أوتوماتيكيةٌ تلبِّي أحتياجاتِ أهلِ نابلس المتزايدَةَ ..

وهو فرَّانٌ نشيطٌ .. يحبُ عملَهُ ويحبُّ خدمةَ أهلِ مدينته ، لكنَّ عملَهُ منذُ مُدةٍ بدأ يتراجَعُ .. لم يَعدْ أهلُ نابلس كما كانوا مِنْ قَبلُ . منذُ دخَلَ الأحتلالُ الصهيونيُّ مُدُنَ فلسطينَ وقراها ؛ تَغيَّرَ الحالُ ، مَنْ كانَ يشتري عشرةَ أرغفةٍ أصبحَ يكتفي بخمسةٍ .. ومنْ كانَ يخبزُ عشرينَ رغيفاً أصبح يَخبزُ عشرةً .. اختفتْ عرائسُ الخبزِ .. تلكَ كانت لإفطارِ أيَّامِ الهناء والسعادَةِ قبلَ الإحتلالِ ؛ أمَّا اليوم فقد أصبحتِ الحياةُ قاسيةً صعبةً .. وأصبحَ الوصولُ إلى الفرنِ صعباً محفوفاً بالمخاطرِ ..

نظرَ عبد الله إلى الشارعِ أمامَ فرنه ، فوجدَ الأطفالَ والشبابَ والرجالَ يواجهون الجنودَ والسياراتِ العسكريةَ الأسرائيليةَ ، منذُ أيّامٍ والشوارعُ تمتلىءُ بالحواجزِ الحجريةِ والمطّاطيةِ .. وتتصاعدُ المواجهةُ مَعَ جنودِ العدوّ .. منذُ أيامٍ ابتدأ شكلٌ جديدٌ من أشكالِ نضالِ الشّعبِ الأعزلِ ضدَّ الأحتلالِ الصهيوني .. منذُ أيامٍ ابتدأتِ الأنتفاضةُ ..

عادت إلى ذاكرة عبد الله أحداثُ ذلك النهارِ منذُ ثلاثةِ اعوامٍ عندما كانت ابنتاه « عائشة وفدوى » تَحملانِ إبريقَ الشّاي وتَنتظرانِ عودتَهُ من الجامعِ .. كانتْ فدوى تجلسُ على أكياسِ الطحينِ ، بينما تقفُ عائشة بالبابِ تنتظرُ مجيئهُ ليضَعَ في يدِها مصروفَها اليومي .. يومَها لمْ

يضَعْ لَها المصروفَ في يدِها ولَمْ يضَعِ العجينَ على ألواحِ الخَشَبِ كالمعتادِ . يومَها لمْ يعرفْ ماذا يفعلُ وكيفَ يتصرَّف .. لقدْ رأى سيارةَ أحد المستوطنين الصهاينة في المستعمرةِ القريبة من نابلس ، وهيَ تعودُ أدراجَها بعدَ اطلاقِ الرصاصِ . فوجيء بابنتِهِ عائشةَ وقد أرتمت على الأرض أمامَ الفرنِ ، وبابنتِهِ فدوى وقد ارتمتْ على أكياسِ الطَّحينِ ..لمْ يكنْ هناك سبباً واحداً ليطلقَ هذا المستوطِنُ الأسرائيليُّ النَّارَ على بناتِهِ وفرنِهِ ، حَمَلَ عبد الله ابنتيه على ألواح الخَشَبِ وأُنطلقَ مع شبابِ الحيِّ إلى مستشفى « الحاجة عندليب العمد » .. بينمَا هَربَ القاتلُ إلى المستعمرةِ القريبةِ « آلون موريه » .

منذُ ذلكَ النهارِ تعاظَمَ الأمرُ في نَفْسِ عبد الله .. كيفَ يأتي هؤلاءِ اليهودِ الصهاينةِ ليحتلوا أرضَ فلسطين وليقتُلوا أبناءَها .. كيفَ يأتي هذا المستوطنُ الأسرائيليُّ ليسكُنَ قربَ نابلس ثمَّ يقتُلَ ابنتَهُ البريئةَ عائشةَ .. قدْ يجيءُ الغريبُ إلى الأرضِ ، وقدْ يطلبُ المساعدةَ منْ أهلها ، وقدْ يعمَلُ فيها .. ولكنْ أن يأتيَ بنواياهُ الخبيثةِ ليحتلَّ مساكنَها ويقطعَ أشجارَها ويقتُلَ أبناءها ؛ فهذا مالا يقبلُهُ أيُّ إنسانٍ ..

منذُ «استشهادُ عائشة» تغيَّرَ حالُ عبد الله وزوجتُهُ ليلى .. تمنيا لو يستطيعان رؤيةَ ابنتهما عائشةَ ، أو أنْ يعُيدا لابنتهما فدوى ساقَها سليمةً .. وقدْ انطوتْ ليلى على نفسِها وعلى شعورِهَا الحزينِ فاحتَضَنَتْ بناتِها الصغيراتِ ، ولَمْ تعدْ تغادرُ المنزِلَ الاّ للضرورةِ .. أمّا عبد الله فقدْ كانَ دائمَ التفكيرِ بالانتقامِ لمقتَلِ ابنتِهِ عائشة ولاحتلالِ مدينتِهِ نابلس ولِوجودِ المستعمراتِ الصهيونيةِ في فلسطين...

منذُ قامت الانتفاضةُ في مُدنِ فلسطينَ وقُراها تغيَّرَ كلُّ شيء ، الانتفاضةُ غيَّرَتِ الناسَ داخلَ فلسطينَ وخارجها .. وقدْ أحسَّ عبدُ الله بالانتفاضةِ تقلِبُ حياتَهُ رأساً على عَقِب .. أحسَّ أنَّها فرصتُهُ للعملِ الذي كانَ ينتظرُهُ .. ألَمْ يقدِّمْ فرنَهُ هذا ومنذُ ثلاثِ سنواتٍ ابنتَهُ الشهيدةَ عائشة ؟ ألَمْ يكنْ يتمنى الانتقامَ لها والدِّفاعَ عن أرضِهِ المحتلّة؟ .

نَظَرَ عبد الله إلى الشبابِ الملثَّمين في الخارجِ .. ثمَّ قامَ بهمَّةٍ ونشاط ، رق الأرغفةَ وخبزَها وصفَّها على الأرفف الأماميةِ .. ولَما جاءَ أحدُهم يطلبُ شراءَ رغيفين قال له عبد الله :

– الخبزُ مجانيُّ .. كلُّ هذهِ الأرغفةَ لكم .. لأهل نابلس ، لشبابِ الانتفاضةِ . كلُّ فَرْدٍ أو عائلةٍ تأخذُ ما تحتاجُ من الأرغفةِ .. وسأخبز لكم كلَّ ما تريدون مجاناً .. مِنَ اليوم فَصاعداً كلُّ عملي

وَجُهدي هُوَ للوطنِ ولأبنائِهِ الثوار .. مَنْ كانَ يملكُ ثَمَنَ الخبزِ يدفع في هذه السلَّةِ ؛ وَمَنْ لا يملكُ يأخذُ قدرَ حاجَتِهِ ، وسأُسمِّي هذا الفرنَ فرنَ الصمودِ .

لقَدْ بدأتِ المعركةُ .. ونحنُ لها ..

* * * * * * * * *

﴿٢﴾

ستةُ أشهرٍ مرّت على الانتفاضةِ ، وليلى زوجةُ عبدِ الله لا تغادرُ بيتَها الا للضرورةِ .. ستةُ أشهرٍ وهيَ تعتقدُ أنَّ حماسَ زوجِها سيخبو .. وأنَّ الانتفاضةَ ستتوقفُ .. كانت كُلَّما رأتْهُ يعملُ منْ أولِ النهارِ إلى آخرِه ، يؤمِّنُ الطحينَ والسولار لفرنِهِ حتى لا ينقطعَ الخبزُ عَنِ الناس ، تقول : لا بدَّ أنَّهُ سيملُّ .. ولا بُدَّ أنَ الانتفاضةَ ستتوقفُ .. فإلى متى سيتحمَّلُ الناسُ « القلَّةَ » «والتعبَ» « والشقاء » .. ستةُ أشهرٍ وليلى تتابعُ أخبارَ الانتفاضةِ عنْ بُعْدْ ، وتتعمَّدُ الا تتدخَّلَ في الحديثِ عنها مَعَ زوجِها ، وتتساءلُ : إلى متى سيبقى الحالُ هكذا في مدينةِ نابلسَ ؟ متى تعودُ المدينةُ إلى هدوئها وأمنِها ؟ متى يعودُ الأولادُ إلى مدارسهِم ، والرجالُ إلى أعمالهم دونَ خوفٍ ؟ متى تفتَحُ المحالُ التجاريَّةُ أبوابها ؟ متى ينتهي السجنُ والاعتقالُ .. متى ... متى .. ؟؟.

كانت ليلى امرأةً فلسطينيةً عاديةً .. تحبُّ أرضَها وتحبُّ نابلس ؛ ولكنها كانت تكرَهُ القتلَ والعنْفَ .. لقَدْ أثَّرَ فيها مقتَلُ ابنتها عائشة دونَ ذنبٍ فهل ستفقدُ – لا سَمَحَ اللهُ – زوجَها ؟ ... أم هلْ ستبقى حبيسة البيتِ خوفاً من الاسرائيليينَ ؟.

* * * * * * * * *

﴿٣﴾

وَقفتِ الجارةُ أمُّ اسماعيل وعشراتُ النساءِ والرجال والأطفالِ بهدوءٍ غريبٍ في الشارعِ .. وَرَغمَ عددِ الناس الكبير ، الاّ أنَّ الشفاهَ لمْ تتحرَّكْ .. العيونُ وحدهَا هي التي كانت تتحرَّك .. كلُّها كانت تنظرُ إلى الأعلى إلى السماءِ وإلى عمودِ الكهرباء وشجرات السَّرو العاليةِ .. في ذلك الشارعِ وقَفَ النَّاسُ والجنودُ الاسرائيليون يراقبونَ أربعةً مِنَ الشُّبابِ يَصعدون عمودَ الكهرباءِ ومئذنةَ الجامعِ وشجرتي سرو .. وقدِ انشدتْ الأعصابُ كلُّها ، فلمّا نزَلَ الشبابُ ورمى الجنودُ الأعلامَ على الأرض ، وداسوها بأقدامهم ضجَّ الشارعُ بالحركَة مَرةً أُخرى ، وتباعَدَ الناسُ إلى بيوتِهم يتغامزون .. متى ارتفع هذا العلَمُ الفلسطينيُّ إلى العمود ؟ أيُّ أيدٍ طاهرةٍ أوصلَتْهُ إلى

شجرةِ السَّروِ ؟ متى يخيطُ الناسُ هذهِ الأعلامَ ؟ ومتى يزرعونَها على مآذنِ الجوامعِ ؟.

تباعَدَ الناسُ إلى بيوتِهم ، ولكنَّ أحَدَ الجنودِ الاسرائيليين أشارَ إلى أمِّ اسماعيل وأربعةٍ مِنَ النساءِ الأُخرياتِ كي ينظِّفنَ الشارعَ مِنَ الحجارةِ ، بينما أقتادوا مجموعــةً مِنَ الشّبابِ الى « العمارةِ » للتحقيقِ معَهم !!.

أدخلتْ ليلى بناتِها مِنْ عنْ شرفةِ منزلِها .. أقفلتِ البابَ وراءَهم بالمزلاجِ والمفتاحِ .. أنزلت الاباجورات ، فهي لا تريدُهم أن يشاركوا ولوْ « بالفرجةِ » على أحداثِ الانتفاضةِ . ولكنَّ فدوى في تلكَ الليلةِ قامتْ تُطلُّ مِنْ ثُقبٍ في النافذةِ ، فإذا بها ترى أحمد ابنَ جارتِهم « أمِّ أسماعيل » يتسلّلُ مِنْ منزلِه حاملاً عصاً طويلةً ، ويصفِّرُ صفيراً عالياً ، ومِنْ بيوتٍ قريبةٍ سمعتِ الصفّاراتِ تردُّ التحيةَ علـى صفـيرِ أحمد ،.. وبعدَ ثوانٍ كانَ عشراتُ الشبّابِ الملثّمينَ يخرجون إلى الشارعِ يكسرونَ لمباتِ الإنارةِ في مصابيحِ الشّوارعِ .. فلمّا عَمَّ الظّلامُ الشارعَ ؛ شاهدتْ فدوى « الأشباحَ » تتسلّقُ المرتفعات !!.

* * * * * * * * * * * *

﴿٤﴾

في صُندوقِ « فُرنِ الصمود » جمَعَ عبد الله مبلغاً مِنَ المالِ يكفي لشراءِ خمسةِ أكياسٍ جديدةٍ منَ الطَّحينِ .. كانَ منْ يملكُ نقوداً يدفعُها مقابلَ ما يأخُذُ منَ الخبزِ .. ومنْ لا يملكُ يأخُذُ مِنَ الخبزِ قدرَ حاجَته .. كانَ اهتمامُ عبد الله « واللجنة الشعبيةِ في قيادةِ الأنتفاضةِ » تأمينُ الخبزِ لكلِّ أهـالي نابلس .. فأيُ بيتٍ يجدُ الخبزَ ، سيصمدُ وسيواجِهُ الأعداء ..

ولكنَّ عبدَ الله كانَ يواجِهُ مشكلةً كبيرةً ، بدأتْ تُطلُّ برأسها منذُ أيامٍ .. لقدْ نقصَ « السولار » منْ محطَّاتِ الوقودِ في المنطقةِ كلِّها ، واضطرَّ أنْ يشتريَ كمياتٍ إضافيةً من محطةٍ قريبةٍ .. للضرورةِ ، وازدادَ النقصُ حتى انقطعَ نهائياً .. قطعتْهُ حكومةُ الاحتلالِ ومنعت وصولَهُ إلى كلِّ مدنِ فلسطين ..

نظرَ عبد الله إلى مخزونِ السُّولار في بيتِهِ فرأى فيه وَفراً فقالَ لزوجتِهِ :

– أرى عندكِ مزيداً منَ السُّولارِ ..

– نعَمْ .. أُوفِّرُ استعمالَهُ كما ترى ، فلا أُشعِلُ المدفأةَ الاّ في ساعاتِ البرْدِ القارِصِ ..

– أريدُ أن آخذَهُ يا ليلى إلى الفرنِ ، فلقدْ انقطَعَ السُّولار منْ كلِّ مكان .

– كيفَ تأخذُهُ ؟ ونحنُ ماذا نفعل ؟

– تلبسينَ أنتِ وأولادُكِ مزيداً من الملابسِ ، وتضعونَ الحراماتِ الصوفيَّةَ.

ثارت ثائرةُ « ليلى » .. فكيفَ تصبِرُ هي وبناتُها الصغارُ على البردِ . ؟الا تنتهي مشاكلُ مدينةِ نابلس ؟ الا تنتهي الانتفاضة ؟ .. ألنْ ينتهي الاحتلال ؟ متى ينتهي يا ربُّ .. متى ...؟

عشرةُ أشهرٍ مرت على الانتفاضة وعبد الله يداري زوجتَهُ ويحترِمُ شعورَهَا ونفسيَّتَهَا .. عشرةُ أشهرٍ وهو يتوقَّعُ أنْ تغيرَ مِنْ موقفِها وأنْ تتعامَلَ مَعَ الانتفاضةِ بشكلٍ آخرَ .. فَهلْ ستبقى على سلبيتِّهاهذهِ يا تُرى ؟ ... منذُ بدأتِ الانتفاضةُ ملأتِ الفرحةُ قلبَ عبد الله ، وازدادت ثقتُهُ بنفسِهِ ، واعتدادُهُ بكرامَتِهِ وكرامةِ أبناءِ بلدِهِ .. فلماذا لا تشارِكُهُ زوجتُهُ موقفَهُ ؟؟ صحيحٌ إنَّ مشوارَ الحريَّةِ طويلٌ وأنَّهُ شاقٌ وصعبٌ ، وأنَّهُ قدْ يسقطُ مزيدٌ مِنَ الشهداءِ ، وقد يسجنُ مزيدٌ من الشبابِ . لكن

وللحريَّةِ الحمراءِ بابٌ   بكلِّ يَدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

* * * * * * * * * *

خمسةُ أيامٍ متتاليةٍ لمْ يخرجْ عبدُ الله ولا زوجتُه ليلى ولا البناتُ مِنْ منزلِهمْ .. لقدْ فرَضَ العدوُّ منْعَ التجولِ على مدينةِ نابلس .. والتزَمَ أهلُ المدينةِ بالأمرِ فقبَعوا في البيوتِ لا يبرَحونَها .. كانَ الأمرُ سهلاً على ليلى وبناتِها ، فهيَ قدْ فرضتْ على نفسِهَا منعَ تجوُلٍ الزاميٍّ خاصٍّ بها .. ولكنَّ عبدَ الله لم يكُنْ يُطيقُ منْعَ التجولِ ابداً .. فكيفَ يعيشُ النَّاسُ من دونِ الأفرانِ ؟؟.

قَالتِ الجارةُ أمُّ اسماعيل من شرفَةِ بيتِها تحدِّثُ عبد الله ..

– « *ايه يا جارنا .. يفرجها الله .. الناس بتدبّر حالها ... انت نسيت بوابير الكاز القديمة يا جارنا ؟ .. لا تخاف على الناس .. طنجرة عدس تكفيهم ، حبة زيتون تشبعهم .. الجوع مش مهم .. المهم الصمود ، حتى يزول ها الأحتلال* .. » .

سكَتَتْ أمُّ أسماعيل ثُمَّ قالَت :

– « *أنظر إلى قطعة الأرض الصغيرة التي تحيط بالدار ؟ لقد زرعناها شوية بندورة على بصل على فول أخضر على باذنجان .. وها نحن ناكل منها ومرتاحين .. المهم الا يرتاح العدو لا ليل ولا نهار* .. » .

– واذا طالَ الحالُ ؟ ..

– « *يطول مهما يطول يا جارنا .. أحنا قررنا ومش راح نرجع عن قرارنا .. لا يهمنا شيء ولا نخاف من شيء .. العمر واحد والرب واحد .. واذا كان الأنسان مقدر عليه من ربه ساعة موته ، فليمت وهو مرتاح البال وراحة بالنا الآن هي في التصدي لجنود الاحتلال* .. » .

كانَتْ زوجة عبد الله تسمَعُ الحديثَ باستغراب .. فأمُّ اسماعيل هذه قد أعتُقِلَ ابنُها اسماعيل قبْلَ الانتفاضة .. كانَ في صفِّ التوجيهي ويذْهَبُ كلَّ يومٍ إلى المدرسةِ « حسب الأصول » .. لمْ يكنْ أحدٌ – حتى أمه – قدْ أحسَّ بالتغييرِ الذي جرى عليهِ وبازْدياد تغيُّبِه عن بيتِهِ .. وعندما سالَت صديقَهُ يوماً عنه ، لم تجدْه ، بل فوجئت أن أمَّ صديقِهِ هذا ، تقولُ أنَّ ابنها عندَ اسماعيل نفسِهِ لدراسةِ الفيزياءِ .. وقدأُرتابَتْ منذُ ذلك اليوم بالأمرِ وأحسَّتْ أن ابنها يخبِّيءُ عنها امراً ما .. واشتكت لجارَتِها « ليلى » عن مخاوفِها . كان ابنها يحضُرُ في المساء متعباً منهكاً لا يقوى على الحديثِ وتكرَّرَ غيابُهُ عن المدرسةِ والبيتِ ، فلما جاءَ الجنودُ الأسرائيليون في ذلكَ المساء إلى منزلِ أمِّ اسماعيل عرفتْ ليلى الأمْرَ دفعةً واحدةً .. ولَما جرَت محاكمتُهُ بعدَ أشهرٍ وعَلمتْ أنَهُ قدْ سُجِنَ تسعةَ عشرَ عاماً ، ابتدأتْ تبتعدُ عن جارَتِهَا وعنْ مشاكِلِها .. فهلْ ستسمَحُ لزوجِها

وبناتِها أنْ يستمَعُوا لأفكارِ أمِّ اسماعيل هذه ؟ .

جرّت « ام عائشة » بناتِها من الشرفةِ .. وطلبتْ من زوجِها الدخــولَ لإقفالِ البـاب بالمفتـاحِ والمزلاج !! .

* * * * * * * * * * *

﴿٦﴾

لم تكنِ السَّاعةُ قدْ جاوزتِ الخامسةَ صباحاً عندما دُقَّ البابُ دقاً عنيفاً متقطعاً ، وأطلَّت فدوى منْ فتحةِ البابِ وإذْ بمجموعةٍ مِنَ الشَّبابِ الملثَّمين بالحطَّاتِ يُلحُّونَ عليهْا بفتح البابِ للجوء والإختباءِ عنْ عيونِ الجنودِ الاسرائيليين .. كانوا مجموعةً مِنَ الشَّبابِ قدْ فرُّوا من أمامِ دوريةٍ عسكريةٍ فاجأتهم ، فتفرقوا بينَ البيوتِ القريبةِ ..

وانطلقت فدوى لوالدَتِها لتساعِدهَا على فَتحِ البابِ .. وأحتارات ليلى وترددّت لحظات .. هل تتركُ الشبّابَ بالبابِ يواجهونَ العدوَّ وقد استفردَ بهم وحشرَهُم في هذهِ الزاويةِ ، أمْ تفتحُ لهم البابَ وتخبئهم وتتعرَّضُ للجنودِ يستجوبونهَا ويدخلونَ بيتَها ؟؟ ..

لمْ تردْ ليلى أنْ تتدخَّلَ في مشاكِلِ الانتفاضةِ .. أوْ أنْ تعرِّض بناتها للجنودِ الاسرائيليين .. فماذا تفعلُ وقد استنجدَ الشبابُ بها ؟.. ماذا تفعلُ وهيَ تحسُّ اللهفةَ في صدورِهم ؟ .. لا بدَّ أنهمْ هاجموا الدوريةَ عَنْ بُعْدٍ ، ورَموها بحجارَتِهم فلمَّا نزلَ الجنودُ من سياراتِهم ولحقوا بهم ، انسحَبُوا إلى الخلفِ تحسُّباً من أسلحَتِهم .. وقدْ شاهدَت بعضَهم يركضُ في « الحواكير » الخلفية ، أو يختبىءُ في الأزقَّةِ الضيقَّةِ .. فماذا تفعلُ لهؤلاء الذين استنجدوا ببيتها ؟؟ .

مرّت ثوانٍ ، كأنَّها الأعصارُ الكبير .. كانَ الأمرُ محيراً والقرارُ صعباً ولكنَّ فدوى عرفَت أحدَهم إنَّهُ « أحمد » ابن جارتهم « أم اسماعيل » فهمسَت لوالدتِها تطلبُ المساعدةَ ..

وبهدوءٍ لم تعهدْهُ ليلى في نفسها منْ قبلُ .. وكأنَّ اللّه قدْ أنزلَ سكينتَهُ على قلبِها .. فتحتْ ليلى البابَ وأدخلتِ الشبّابَ وأعادتْ المفتاحَ والمزلاج ..

ثوانٍ وكانَ طشتُ الماءِ قد امتلأ بالماءِ ووُضِعَت فيه بنطلونات جينز وكنزات صوفيةٍ وتحتها وُضعت الحطَّاتُ الفلسطينيةِ .. ثوانٍ وكانَ الماءُ الباردُ ينزلُ على رأسِ أحدِ الشبَّابِ للإستحمامِ .. ثوانٍ وكانَ السَّريرُ قد نامَ فيه شابٌ لَمْ يعرفُ النَّومُ إلى جفونِه سبيلاً ..

وبعدَ قليلٍ وقفت ليلى تَمْسَحُ يديْها مِنَ الماءِ والصَّابونِ ، وتُنكرُ أنَّها رأت أحداً يمرُّ مِنْ هُنا .. كلُّ ما رأتْهُ شباباً يقفزونَ إلى الحواكيرِ الخلفيةِ بينَ البيوتِ والأشجارِ !!.

وبعدَ ساعةٍ كانت ليلى تَقِفُ على الشرفةِ وتنادي على جارتها أمِّ اسماعيل : –

– يا أم اسماعيل .. إنتبهي لأبنك أحمد فقد يأخذونهَ إلى السجنِ ..

– « *الله يحميه ويحمي كل الشباب يا جارتنا ... والله قلبي على كل الشباب اللي في عمره .. بس شو أعمل ؟ لا أحد يقدر يمنعهم من الإشتراك في الإنتفاضة* » .

– وإذا سُجِنَ لا سمَحَ الله ؟

– " *أذهب وأزوره هناك .. أراه مع أخيه اسماعيل .. انت تعرفين انني أذهب الى السجن كل يوم جمعة .. اشاهد اسماعيل نصف ساعة فقط .. فإذا أخذوا أحمد ازور الإثنين معاً .. أتدرين يا جارتنا ؛ اسماعيل وصاني أن لا أمنع أحمد من المشاركة في الإنتفاضة .. قال لي يمّا ... إياك يمّا تمنعي أحمد من القيام بدوره مع شباب الإنتفاضة .. اياك يمّا ... وأنت يمّا لا توفري روحك وتنحبسي في البيت .. اخرجي مع المظاهرات واحمي الشباب وساعديهم في كل ما يريدونه ، الله يخليك .. الثورة بدها الشعب رجاله ونساؤه وأطفاله .. لا تترددي ابداً في حماية الشباب وتوفير احتياجاتهم* ..

قالَتْ ليلى وهي تخفِضُ صوتَها خشيةَ أنْ يسمعَها أحدُ :

– وهلْ تساعدينهم حقاً ؟ .. هلْ تخرجينَ في المظاهراتِ ضدَّ الجنود الإسرائيليين ؟ هلْ ترمينَ الحجارةَ على السياراتِ العسكريةِ ؟ هل تقبلينَ بحملِ إطاراتِ السيّاراتِ المطاطيةِ وحرقِها في مداخلِ نابلس ؟ .. واللّهِ لوْ كانَ أحمد إبني وعلمتُ أنَهُ يَضعُ الأعلامَ في اللّيلِ على رؤوسِ الأشجارِ والمآذنِ أو أعمدةِ الكهرباء ، لما سمحتُ لَهُ بالخروجِ مِن عتبَةِ الدارِ هذهِ أبداً ...

قالتْ أمُّ اسماعيل ببراءةٍ ..

– " *ولو يا جارتنا .. والله انت خايفة الآن بس لأنك حامل وبناتك صغار .. أما لو كنت مثلي لما خفت أبداً ، ولما منعت نفسك من مساعدة الثورة . أي والله أمس ذهبت الى مستشفى الحاجة عندليب العمد .. قالوا ان هناك شبابا قد جرحهم العدو ونزفوا وبحاجة الى دم .. وقد ذهبت للتبرع بدمي .. فوجدت عشرات من النساء والرجال قد تقدموا قبلي للتبرع بالدم .. أي والله يا جارتي كلنا كنا فرحانين ان ننقذ جريحاً بدمنا .. لقد أخذوا دماً أكثر من حاجتهم بعشر مرات .. وعلى فكرة أنا تعلمت الإسعافات الأولية ، وإذا احتجتيني أنا مستعدة اساعدك في أي وقت كان...*

لمْ تتفوّه ليلى ببنتِ شفةٍ .. قالَت في نفسِها : أيُّ نوعٍ منَ النساءِ أنتِ يا أمَّ اسماعيل ؟ أيُّ قدرةٍ على الصبرِ والعطاء قد زَرَعها اللهُ في قلبكِ ؟ وأيُّ ثورةٍ كبيرةٍ تملأُ جوانحَك فلا تكَلّين ولا

تملّين ؟ .. أيُّ امرأةٍ فلسطينيةٍ أنتِ .

دخلت ليلى المنزلَ وأغلقتِ الأبوابَ ...

* * * * * * * * * * *

٧

استيقظَ عبدُ اللهِ مبكراً كعادتِهِ ، ولكنَّهُ لمْ يجدْ زوجتَه ليلى في فراشِها .. فهلْ يكونُ موعدُ ميلادها قد حان ؟؟ .. كانت ليلى تحسُّ بالقلق الشَّديدِ تجاهَ حملْها هذه المرَّةِ .. هلْ كانَ ذلكَ بسببِ أحداثِ الإنتفاضةِ ومنْعِ التَّجوُّلِ وصعوبةِ الوصول الى المستشفى ؟ أم كانَ لرغبتها الكبرى أن يكونَ ما في بطنها ولداً ذكراً ، ابناً لوالدِهِ وأخاً لأخواتِهِ الأربَعِ ؟

تركت ليلى فراشَها واتجهتْ إلى الشُرفَةِ في عتمةِ الظَّلامِ ، نظرَتْ إلى النجومِ والقمرِ وآيات اللهِ .. ثمَّ رفعت يديْها إلى السماءِ وأخذتْ تدعو اللهَ مِنْ كلِّ قلبها .. يا رب ولد .. يا رب أرزقني بولد .. يا رب ارزقني بولد " ..

وأحسَّت ليلى بأحدٍ يمسكُ ذيلَ فستانها من خلفِها ، فخافت فإذا ابنتها الصغرى ذاتُ العامين قد استيقظت ولحقتْ بها تُمسكُ ذيْلَ فستانها .. فاحتضنتها وقالَتْ لها .. " قولي معي يا رب ماما تولد ولد " .. فلم تفهمِ البنتُ ما تقول ، فأعادتْ عليها أُمها الكلامَ،علَّها تكرِّرُهُ ، وعلَّ اللَّهَ يستجيبُ لدعوةِ الصغيرةِ البريئةِ ..

وسَمِعَ عبد الله فأقبلَ على زوجتِهِ يحتضنُها بحبٍ وعطفٍ ويقول :

– يا ليلى .. البنات والأولاد نعمةٌ من اللهِ .. والله ما عندي فرق بين البنتِ والولدِ .. كلُّهم مثل بعض..

قالت ليلى وهيَ تُغالِبُ دمعَها ..

– لا .. أنا أريدُ ولداً .. أريد ولداً لكَ يحملُ أسمكَ ، وأخاً لبناتي يقفُ معَهُنَّ . حتى أنتَ في قرارةِ نفسكَ تريدُ ولداً .. لقدْ قلتَ لي مرةً أنَّهُ إذا رزقَنا اللهُ بولدٍ فسوفَ نقصُّ شعرَهُ أوّلَ مرّةٍ في مدينةِ الخليلِ قُربَ الحرَمِ الإبراهيميِّ ؛ فكيفَ تقولُ الآنَ أنَّكَ لا تهتم اذا كان المولودُ ذكراً أمْ أنثى؟ ...

– كلُّه رضا مِنْ ربِّ العالمين يا ليلى ..

وأجهشتْ ليلى بالبكاء ..
واحتضنها زوجُها بحنانٍ ، فهوَ يعلَمُ أنَّ ما تعانيهِ في هذهِ الأيامِ يفوقُ قدرتَها على التحملِ وأنَّهُ ليْسَ فقط موضوعُ الولَدِ والبنتِ ؛ بل إنَّ جميعَ النَّاسِ في نابلس يُعانونَ الكثيرَ في هذهِ الأيامِ ؛ ولكنَّهم يتحمَّلونَ ويصبرونَ .. هُوَ نفسُهُ يُعاني من صعوبةِ العملَ في الفرنِ وقلّةِ النقودِ بينَ يديهِ ، ويعاني من منْعِ التجوُلِ الذي يستمرُّ احياناً اياماً وأسابيعَ .. ولكنَّهُ يتحمَّلُ ويصبرُ ، بل يَشعُرُ بالكرامَةِ والكبرياءِ في سبيلِ وطنه ..
وتوقَّفَ قليلاً .. فهل صحيحٌ أنَّهُ لن يتضايَقَ اذا انجبت زوجَتُهُ بنتاً خامسةً ؟ لقدْ كانَ هو الأخُ الوحيدُ لأربعِ بناتٍ .. وهوَ ما يزالُ يذكرُ كيفَ كانَ " الأثيرُ " عندَ والديه .. لا يزالُ يذكُرُ فعلاً كيفَ كانَ شعرُهُ طويلاً كالبناتِ ، الى أنْ أصبحَ عمرُهُ سبعَ سنواتٍ .. كانَ يسمَعُ أمَّهُ تقول

أنها " نذرَتْ " أن تقصَّ شعره في الحرَمِ الإبراهيمي في مدينةِ الخليلِ .. لم يكُنْ يعرفُ أينَ تقعُ مدينةُ الخليلِ هذهِ ، ولماذا هي بالذات ؟ ألا يوجدُ صالوناتُ حلاقةٍ في مدينةِ نابلس ؟ والدُهُ يقصُ شعرَهُ كلَّ أسبوعٍ في نابلس ، فلماذا لا يقصُّ هو شعرَهُ عندَ نفسِ الحلاق ؟

قالوا : نصلِّي اولاً في الحرَمِ الابراهيمي ثمَّ نقصُّ شعرَكَ .. قال : يوجَدُ في نابلس جوامعَ كثيرةٌ فلماذا الحرمُ الإبراهيمي ؟ ..

ومعَ ذلكَ فقدْ كانَ فرحُهُ بالسَّفرِ معَ والديهِ يومَ الجمعةِ كبيراً ..

يومَها سارَتْ السيَّارةُ مدةَ ساعةٍ أو أكثر ووَصلتْ إلى بساتينِ وكرومِ العنبِ .. واشتروا صناديقَ العنبِ والتينِ " والملبن " .. يومَها استغربَ من " الملبن " فهو لمْ يسمَعْ باسمهِ من قبْل ..

قالوا لَهُ أنَّهُ "عجينةُ العنبِ" فاستغربَ أكثر : وهَلْ للعنبِ عجينٌ كمَا للخبزِ الذي يراهُ في فرنِ والدِهِ؟ ثمَّ اشترى والدُه مزهريَات وثريَّاتٍ وقناديلَ منَ الزُّجاجِ الملوَّنِ بالألوانِ الجميلةِ الجذَّابةِ من صناعةِ أهلِ الخليلِ .. واشترى بساطاً كبيراً لا يزالُ في منزلِ والدِهِ إلى اليومِ ..

يومَها أحسَّ أنَّ أهلَ الخليلِ " شاطرين " في كلِّ شيء حتى أنَّهم يصنعونَ الصابونَ الذي يتباهى أهلُ نابلس بأنَّهم أمهر النَّاس في صناعتِه ...

كانتْ اياماً جميلةً تلكَ الأيَّام .. كلُّ شيءٍ في نابلس كانَ جميلاً .. فهلْ يعودُ لنابلس هناؤها .. وهل سيعيشُ ابنه ... إن ولد ...مثلَ تلكَ الأيَّامِ ؟

* * * * * * * * *

﴿٨﴾

كلُّ حَدَثٍ في نابلس ومنْذُ بدأتِ الإنتفاضةُ كانَ يثيرُ الدهشَةَ عندَ ليلى ؛ مصابيحُ الشَّوارعِ يكسرُها شبابُ الإنتفاضة .. الأعلامُ الفلسطينيَّةُ تُخاطُ وتَرتَفعُ على أعمدةِ الكهرباءِ وأشجارِ السرو ومآذنِ الجوامعِ .. الأمَّهاتُ يقدِّمنَ لأولادهنَّ الحجارةَ لرَميها على جُنودِ الإحتلالِ .. إطارات السياراتِ يحرقُها المواطنونَ أمامَ الدَّوريات العسكريَّةِ الإسرائيليَّةِ ..

شبابٌ بعمرِ الورودِ يُعتقلونَ أو يسقطونَ شهداءَ ، فتزدادُ الثورةُ اشتعالاً ، دكاكينُ ومحلاتٌ تجاريَّةٌ تُفتَحُ أو تُقفلُ تبعاً لبياناتِ " القيادة الموحدة للإنتفاضة " . تعاطُفٌ وتآخٍ بينَ الجيرانِ لا مثيلَ لَهُ .. أكياسٌ صغيرةٌ مِنَ السُكرِ والأرزِّ والسَّمنِ وبَعضُ اللَّحمِ والخبزِ توزَّعُ على أبوابِ المنازِلِ لا يدري أحدٌ مَنْ يَضعُها ومتى ؟ .. وقدْ كُتِبَ عليها : " مِنْ لَجْنَةِ الإنتفاضةِ لكَ أو لجيرانكَ المحتاجين " ..

كلُّ أحداثِ نابلس تثيرُ دهشةَ ليلى بل العالمِ كلِّه .. منْ هُمْ قادةُ الإنتفاضةِ هذه .. مِنْ أينَ لهم الأموالُ لدعْمِ صمودِ النَّاسِ وتأمينِ حاجيَاتهم ؟ مَنِ الذي يُصدِرُ البياناتِ الشهريةِ للإنتفاضةِ؟ ومن يوزِّعُها ؟ ومتى ؟ ..

كلُّ يومٍ تعتقلُ الحكومةُ الاسرائيليةُ عشراتِ ومئاتِ المواطنين ، وتعلنُ أنه باعتقالهم ستُوقِفُ الإنتفاضةَ ؛ فَهم " قادتُها " .. امتلأت السُّجونُ بالشبابِ والفتياتِ ولمْ تتوقَّف الإنتفاضةُ .. كلُّ يومٍ يخرُجُ " اسحق شامير وشمعون بيرس واسحق رابين ، رؤساءِ ووزراء حكومة اسرائيل " يقولون أنَّهم سيقمَعونَ الإنتفاضةَ حالاً وخلال أيامٍ فقط ، فتطولُ الأيَّامُ ولا تُقمَعُ الإنتفاضةُ ولا تتوقف ..

* * * * * * * * * * *

﴿٩﴾

عندما خَرَجَ عبد الله مِنْ بيته إلى فرنه رأى حشداً هائلاً مِنَ النَّاسِ يملأونَ الشارعَ ، وسَمِعَ الهتافاتِ تملأُ الأفقَ وتصِلُ إلى عَنانِ السَّماءِ ... وجدَ شاباً ملثَّماً يحملُ علماً فلسطينياً كبيراً ومنْ حولِه بعضُ الشَّبابِ يحملونَ شيئاً صغيراً .. وشاهدَ شاباً أجنبياً أشقرَ الشَّعرِ يصوِّرُ بكاميرته

السينمائيةِ ما يجري في المظاهرةِ .. كانت مجموعةٌ كبيرةٌ مِنَ النِّساءِ يُحِطْنَ بامرأةٍ تصرخُ وتبكي .. ولمْ يستطعْ عبد الله أنْ يميزً ما يجري ... ثمّةَ أمرٍ غريبٍ كانَ في مظاهرةِ اليومِ ...

اقتربَ عبد الله يستطلِعُ الخبرَ ... حاولَ الإقترابَ وإذ بهِ يرى جارتَهم أمَّ إسماعيل فقال لها...

– ما الأمر ؟

– " *جيراننا في الشارع المقابل يا جارنا ... ابنهم عمره يومين إثنين فقط ... والله يومين ، أنا ساعدتها في الولادة مع القابلة أولَ أمس* " ...

– ماذا جرى لَهُ ؟ ...

– " مات ... قال اختنق بالغاز ومات ... يا عيني على أمه .. لسّاها تعبانة من الطلق والميلاد" ...

– وكيفَ وصلَهُ الغاز ؟ ..

– " من جنودهم يا جارنا .. من جنود اليهود .. كانت أمه يا عيني فاتحة الشباك ، قال بدها شوية هواء نظيف يدخل الغرفة .. فدخلت قنبلة غاز ، رموها يا جارنا داخل البيت .. شاهدوا النافذة مفتوحة فرموا القنبلة داخل البيت .. والولد الصغير لم " يلبط " دقيقة واحدة .. ومات ... أي هو يا جارنا صدره راح يتحمل الغاز ؟ "

قالَ عبد الله وهوَ يغادرُ المكان متَّجهاً إلى فرنِهِ ، تاركاً المظاهرةَ والجنازةَ ...

– أرجوكِ يا أمَّ اسماعيل ؛ لا تخبري ليلى عمّا جرى . فلا أعتقدُ أنَّ أعصابها تتحمّلُ هذهِ الأخبار ، سيّما وأنَّها تتوقَّعُ أنْ تلِدَ قريباً ...

انطلق عبد الله قلديه اليوم في فرنه " عملٌ مهمٌ خاصٌ " ...

* * * * * * * * *

﴿١٠﴾

كانَتْ عائدةً لمنزِلها تحملُ شنطةً صغيرةً ، وقدْ رأتْها فدوى فبادرتْها قائلةً ...

– هل تسافرينَ يا خالة أمُّ اسماعيل ؟

– " ثالث مرَّة يا بنتي اقدّم طلب للحاكم العسكري ليسمح لي بالسفر الى عمان فيرفض ... كل يوم اذهب وأقول اجرّب حظي لعلّهم يرأفون بحالي " ..

– ولماذا تسافرين ؟

– أخي يا بنتي أعطاك عمره ... مات في عمان ..

– وكيف توفي ؟

– " توفي يا بنتي بالسكته القلبية ... وعنده ثماني اولاد ... الأعمار بيد الله يا بنتي ... والله لوكان في عمان والانابلس والا في القمر وأجا أجله فسيموت ... وهذا الحاكم العسكري " الله يقطعه ويقطع إسمه " يمنعني من السفر ... والله أنا لولا كان أملي ان أرى أخي قبل دفنه لما طلبت السفر ... وكل يوم أحاول فلعلي أرى أولاد أخي وزوجته وأواسيها في محنتها " ...

– ولماذا لا يسمحُ لكِ بالسفَرِ ؟

- " احتلال يا ابنتي احتلال !! والمحتل وظيفته يعذب أهل البلد ... قال يريدني أن أدفع ما يقارب مائتي دينار " لدولته " قبل ان يسمح لي بالسفر تصوري ... مائتي دينار مقابل ان يسمح لي بالسفر في أرضي العربية ... وأنا والله لن أدفع ... والله اذا أصر على الدفع فلن أسافر اطلاقاً ... أي أنا لولا الشديد القوي وحب أخي الله يرحمه ما رحت " العمارة " اتـرجى اولاد (..) أي يابنتي : ابني اسماعيل الله يرضى عليهَ اللي في السجنَ قال لي : كيف تسافرين الى عمان يا أمي في هذه الظروف ... قلت له : خالك اشوفه ... قبل دفنه ... قال : يمّا أوعي تسافري ... في هذا الوقت اللي يترك أرضه وقت الحرب مثل اللي يتولى يوم الزحف .. أي يهرب من امام جنود العدو ... ومن يهرب من امام العدو فأن الله يغضب عليه ... انا الحقيقة يا بنتي ضحكت على اسماعيل ابني ... يعني انا معقول أهرب من الانتفاضة ومن مواجهة جيش اسرائيل " ... لا والله أبداً ... لكن ربنا ينتقم لي من هالحاكم العسكري ومن أولاد الحرام اللي في "العمارة" اللي بعذبوا الناس " ...

* * * * * * * * *

«١١»

أنهى عبدُ الله مشروعَهُ " المُهم والخاص " في فرنِهِ .. لمْ يكنْ أحدٌ يدري ماذا يفعلُ عبد الله في الفرن في ساعات انتهاءِ الخبزِ .. ولمْ يدرِ أحدٌ سببَ خروجِ أكياس الطَّحينِ ملأى بمادةٍ غيرِ الطَّحينِ من فرنْه .. كان سراً احتفظَ بِهِ مَعَ بعضِ شبابِ اللجنةِ الشعبيةِ للانتفاضةِ .. ماذا كانوا يعملَونَ في الفرنِ ساعاتٍ وساعات وهوَ مقفلٌ من الخارج ...؟ ماذا كانوا يبنون تحتَ الفرنِ ؟

لماذا كانت أكياسُ الرَّملِ والأسمنتِ تخرُجُ وتدخُلُ بالسرِّ إلى الفرنِ ؟ وأين كانت تذهبُ ؟ .. المهم أنَّ عبد الله قدْ أنهى العملَ في المشروعِ فأقفل فرنَهُ وعادَ إلى البيتِ ، ليطمئنَّ على زوجتهِ قبل ذهابِهِ للصلاةِ ..

في كلِّ يوم جمعةٍ يذهبُ عبدالله إلى بيتِ والدِهِ في الحارةِ القديمةِ في " الياسمينة " ، ليصلِّي مَعَ والدِهِ في جامعِها .. في كلِّ يومِ جمعةٍ يسترجعُ عبد الله في ذهنِهِ أحلى أيَّامَ طفولتهِ وشبابِهِ في حارةِ الياسمينةِ .. وهوَ لنْ ينسى أبداً يوم الاحتفالِ بانهائِهِ قراءةَ المصحفِ عندما كانَ صغيراً .. كانَ احتفالاً كبيراً لا يزالُ يذكرُهُ بتفاصيلِهِ الدقيقةِ .. كانَ في الثانيةَ عشرةَ من عمرِهِ لا يزالُ في المدرسة ، وكان والدُهُ ينتظرُ أن يختمَ قراءةَ القرآن الكريم ليقيمَ الاحتفال " بختمِ المصحفِ " .. كلُّ أهلِ نابلس يقيمون احتفالاً مميزاً عندما يُنهي ابنَهم قراءةَ المصحفِ . وعبد الله

الأبنُ الوحيدُ لوالدِه فكيف لا يحتفلُ إحتفالاً مميَّزاً بهِ ؟ ..
عِنْدَ النَّجارِ وصَّى الأبُ على " كرسي الختمةِ الخاصِ " ، الذي يُزيَّن بالقماش الأبيض ومحارمِ الحريرِ والقصبِ ...
عندَ الخيَّاطِ خاطَ الأبُ بدلةً كُحْليةً رسميةً لعبد الله ... ومن السُّوقِ اشترى لَهُ كلَّ الملابسِ الداخليةِ وحتى الحذاء الجديد .. لم ينم أحدٌ في المنزلِ في ليلةِ الاحتفالِ . كانت أخواتُهُ يُخطنَ القصبَ والحريرَ "بيتاً" للمصحفِ الشريفِ .. وقدْ لبِسَ عبدُ الله كأنَّهُ " عريس " وحملَ المصحفَ الشريفَ المطرَّزَ وقصدَ مدرستَهُ ، مُحاطاً بالشَّبابِ يدقُّونَ الطبولَ وينقرون الدفوفَ ويُغنّونَ المدائحَ الدينيةَ .. وارتفعتِ الأصواتُ وهي تقتربُ مِن المدرسة ، وارتفعتْ دقّاتُ قلبِ عبد الله . ووَقَفَ تلاميذُ المدرسةِ على النوافذِ والأبوابِ ليروْا موكبَ زميلهم وكرسيَّ الختمة .

وَصَلَ الكرسيُّ على ظهْرِ سيارةٍ تُطلِقُ أبواقَها وتسيرُ أمامَ " الموكبِ " . ودَخَلَ الأهلُ والأقاربُ والجيرانُ المدرسةَ .. واستقبلَهم المديرُ والمعلمون ، وتحلَّقَ حولَهم الطُّلابُ .. وحمل الشبابُ " أسفاطاً " من الحلوى النابلسية يقدمون منها للمديرِ والمعلمين ، ونثروا على رؤوسِ

الطلبة : " صرراً " من الملبسِ ..
وَعلا صوتُ الزفَّةِ ونقرُ الدفوف
ودقُّ الطبولِ .. وشاركَ طلاَّبُ
المدرسةِ بترديدِ الأغاني والمدائحِ
النبويةِ وانطلقَ كلُّ الموجودين
يتقدَّمُهم عبدالله ووالدُهُ يجوبونَ
الشوارعِ والطرقاتِ في حيٍّ
الياسمينةِ ، ويتقبلُون التَّهاني
والتبريكاتِ ..

وفي البيتِ جلَسَ عبد الله
على كرسيِّهِ المزيَّن ، حاملاً
المصحَفَ المزيَّن ، يتقبلُ التَّهاني
من الجيرانِ والمعارفِ والأصدقاء
.. وبقَي حديثُ الحفلِ أياماً
وأسابيعَ ، بل ظلَّت ذكراهُ لا
ينساها عبدالله أبداً ..

* * * * * * * * * * *

﴿١٢﴾

وصل عبد الله إلى منزِلِ والدهِ واطمأنَّ على والدتِهِ والجيران وأمسكَ بيدِ والدِهِ ونزلا معاً لصلاةِ الجمعةِ في الجامعِ القريب .. كانَ جامعاً متواضعاً قديماً ولكنَّه كان يغصُّ بالمصلين من كلِّ الأعمار وحتَّى الأطفال ...

كانَ خطيبُ الجامعِ يُنادي للصلاةِ دونَ مكبر .. فمنذُ بدأت الانتفاضةُ أزالَ الحاكِمُ العسكريُّ لمدينةِ نابلس مكبِّرات الصوتِ عن مآذنِ الجوامعِ ، واعتبرَ وجودَها خطراً على أمنِ الدولةِ .. ذلك لأنَّ ترديد عبارةِ " لا إله الاّ الله " في غيرِ وقتِ الصلاةِ كانَ يعني أنَّ أمراً خطيراً قد حصلَ ، فيخرج كلُّ أهلِ نابلس منْ بيوتهم يردِّدون معاً " لا اله الا الله " . فتشتعلُ المنطقةُ بالمظاهراتِ ..

بدأ الخطيبُ خطبَتَهُ فأنصتَ الحضورُ ، وما هي الاّ لحظاتٍ حتى علَتْ همهمةُ بينَ الصُفُوفِ الأماميةِ من المصلِّين ، ثم تحولّتْ إلى أصواتٍ بدأت ترتفعُ رويداً رويداً .. وغَابَ صوتُ الخطيب وابتدأ الضَّجيجُ والصَّخبُ .. وارتفعتْ سحابةُ دُخَانٍ رماديةٍ تتلوى وتنتشرُ في جوِّ القاعةِ ، وبدأ المُصلُّون يسعلونَ ويعطسونَ ويتدافعونَ نحوَ الأبوابِ والشبابيكِ ...

أيُّ منظرٍ غريبٍ رآه عبد الله اليوم ؟ .. الناسُ يتدافعون إلى الأبوابِ والشبابيكِ ، تاركين صلاتهم .. وسحابةُ الدُخانِ تنتشرُ وتعلو في الجوِّ ..

فوجيءَ عبدُ الله بوالدِهِ وقدْ أمسكَ برقبتِهِ يشدُّها فاتحاً فَمَهُ محركاً رأسهُ كالمذبوحِ .. كان شيخاً مسنّاً فما إنْ استنشقَ رائحةَ الغازِ حتى أغلقَ صدرهُ فلمْ يستطعْ لا العطسَ والا الاستنشاقَ ..

في ثوانٍ كانَ عبد الله يجرُّ والدَهُ جراً للوصول بِهِ إلى الباب القريبِ . وبعدَ دقائقَ كأنّها الدهرُ ارتمى الوالدُ في ساحةِ الجامعِ ، يغالبُ الموتَ والاختناقَ . وجلسَ عبد الله قربَهُ يسعلُ سعالاً شديداً ودموعُهُ تسيلُ على خدَّيهِ ..

كانَ كلُّ من في الجامعِ قد ارتمى على الأرض .. والسياراتُ الاسرائيليَّةُ تسيرُ في الطريقِ الرئيسيِّ عن بعدٍ تشاهدُ ما يجري بينما يطلقُ أحدُ المستوطنين الإسرائيليين بعضَ الرَّصاصات من مسدَّسِهِ في الهواء .. وَعَادَ إلى ذهنِ عبدِ الله منظرُ المستوطنِ الإسرائيليِّ الذي أطلَقَ الرَّصاصَ من سيَّارتِهِ قبل مدَّةٍ .. واسترجع منظرَ ابنتيه عائشة وفدوى وقد ارتمتا على الأرضِ وعلى أكياسِ الطَّحين .. وَغامتِ الدنيا في عينيهِ ولمْ يَعدْ يحسُّ بشيءٍ .

بعد ثلاثِ ساعاتٍ أو أكثر .. فتحَ عبد الله عينيهِ فإذا به في المستشفى . سألَ عن والدِهِ فإذا هوَ في السَّرير المقابل .. سألَ عنِ الوضْعِ فقالوا خمسةٌ وعشرون رجلاً مسناً وبعضُ الأطفالِ قد أدخلوا المستشفى حالةُ بعضهِم خطيرةٌ .. لقدْ ألقى الجنودُ الإسرائيليون قنبلةَ غازٍ داخلَ الجامعِ حيثُ يجتمعُ أكبرُ عددٍ مِنَ النَّاسِ فجرى ما جرى !!

كانت قنابلُ الغازِ تُرمى بينَ الحينِ والآخرِ في نابلس.. وكانَ أهلُ نابلس يميِّزونَها ويعرفونَها.. هذه دخانُها أصفر تُجهضُ الحواملَ .. وتلكَ دُخانُها رمادي لإنزالِ الدُّموعِ والاختناقِ .. وهذه ذاتُ لونٍ أحمرَ سامَّةٌ .. وهذه مهيِّجةٌ للجهاز التنفسي والعصبي. بعضُها للأماكنِ العامةِ والشوارعِ، وبعضُها للتجمُّعاتِ المقفلةِ. لكل شرعةٌ ومنهاجٌ.. ولكنَّ أمراً واحداً كان يجمعُها وهو "صُنِعتْ في أميركا" لقمع الانتفاضة !! ..

* * * * * * * * * * *

﴿١٣﴾

منذُ الصَّباحِ الباكرِ كانت ليلى قد لملَمتْ الغسيلَ من أنحاءِ المنزِلِ . لملمت ما كان بحاجةٍ إلى غسيلٍ ، وما لم يكن بحاجةٍ له : بدلّت شراشفَ الأسرَّةِ وأغطيةَ المخدّاتِ.. وجَمعتْ ملابسَ الزوجِ والأولادِ والبشاكيرِ، وأخذتْ تغسلُها كأنَّها تستعدُّ للعيد.. كانت تغسلُ بهمة ونشاط غريبين..

وحين أنهتْ الغسلَ والنشرَ، اتجهت لتنظيفِ البيتِ.. فبدأت بالشَّبابيكِ والأبوابِ والجدرانِ والأرضِ كأنَّها تستعدُّ لحفلٍ كبيرٍ.. ثمَّ التفتت إلى المطبخِ فأعدَّتْ طبختين أو ثلاثاً.. هذه "الطبخة" لغد، وتلك لبعدِ غدٍ.. كانتْ تشتغلُ "كالزنبركِ" الذي لُفَّ ولُفَّ، ثُمَّ تُرِكَ ليعودَ لحالتِه، وتُساعِدُها فدوى وبناتُها الصغارُ..

ولـمّا أقبلَ العصرُ، جمعتْ ليلى الملابسَ عن حبالِ الغسيل، وجلَستْ وبناتُها يطوينَ الغسيلَ، ويُعدْنَ كلَّ شيءٍ إلى مكانه.. وقدْ أحسَّت ليلى بتأخُّر زوجها بعدَ الصلاة.. ولكنَّها لم تُعرِ الأمرَ كثيرَ انتباه.. فهيَ مشغولةٌ جداً "بموضوعِهَا". تُريدُ أنْ تُنهي كلَّ واجباتِها قبلَ ولادتِها.. وها هي قدْ غسلَتْ ونظَّفتْ وطبَخَتْ.. ولَمْ يبقَ عليْها سوى الاستحمامِ والخُلودِ إلى الراحةِ.. وأيُّ راحةٍ!!!

لَمْ تَكدْ تضَعُ جسمَها على السَّريرِ لتستلقي مِنْ عناءِ التَعبِ، حتى سَمِعتْ جَلَبَةً بالبابِ تبعَها صوتُ زوجِها عبد الله ينادي عليها.. ولمّا دَخَل، أخبرَها بكلِّ ما حصلَ في الجامعِ، وكيفَ أنَّهُ تركَ والدَهُ في المستشفى، وأنَّهُ جاءَ فقط ليخبرِها عن سببِ تأخُّرِه وأنَّهُ سيعودُ حالاً لرعايةِ والدهِ المخطرِ..

وانطلقَ عائداً إلى مستشفى الاتِّحاد النسائيِّ والى والدته يطمئنُهَا.. ولكنَّهُ لمْ يكدْ يمشي بضعَ دقائقَ حتى فوجيء بسماعِ أصواتِ المكبِّر تعلِنُ منعَ التجوُّلِ!!!

"منعُ التجوُّلِ!! كيفَ يكونُ منعُ التجوّلِ؟.. وكيفَ أصِلُ إلى والدي في المستشفى.. كيفَ أصِلُ إلى والدتي؟.. وإلى متى سيبقى منعُ التجوُّلِ هذا؟"

كانتْ أخبارُ قنبلةِ الغازِ قد أثارتِ النَّاسَ في نابلس، فخرجوا بمظاهراتٍ كبيرةٍ وحطّموا بالحجارةِ سياراتِ الشرطةِ العسكريَّةِ، واتَّجهوا الى "العمارةِ" يحطِّمونَ زجاجَها ويضربونَ حرَّاسهَا.. فأعلنت الشرطةُ منعَ التجوُّلِ، ومنعتِ السياراتُ مِنْ دخولِ نابلس أو الخروجِ منها،

وحظَرَتْ على الصحفيينَ ورجالِ الإعلامِ الاقترابَ من نابلس أو تصويرَ أيٍّ أحداثٍ فيها.. لقد أعلنوا نابلس "منطقة عسكريةً معزولةً عَنِ العالَمِ كلّه"..

وقفَ عبد الله هنيهةً يُفكِّرُ.. ثُمَّ قال:

– بل اذهَبُ حالاً..

كانتِ السياراتُ العسكريةُ الاسرائيليةُ تجوبُ شوارِعَ المدينةِ شارعاً شارعاً تمنَعُ السُكانَ من مجرَّدِ الإطلالِ من شبابيكِ بيوتِهم أو شُرفاتِ منازِلهم..

ولكنَّ عبدَ الله ظلَّ مندفعاً تدافُعَ الأفكارِ في رأسِهِ.. الاحتلال.. الجنود.. الانتفاضة.. الشهداء.. المعتقلون.. والده.. زوجته.. ابناؤه.. فرنه.. اللجان الشعبية.. اللجان الضاربة.. الحرية.. النصر..فلسطين..

وأقبلت إحدى السياراتِ عليه.. وصرخَ الجنديُّ مِنْ مكبِّر الصوتِ يأمُرُ عبد اللهِ بعَدمِ التجولِ وهوَ لا يستجيب، فنَزَل الشرطيُّ حاملاً هراوتَهُ وانهالَ على رأسِ عبد الله وجَسَدِهِ وأطرافِهِ..

حاولَ عبدُ الله أن يُبدِيَ أسبابَهُ القاهرةَ للتجولِ.. حاولَ أنْ يشْرَحَ قضيَّةَ والدِهِ وزوجتِهِ ووالدتِهِ.. ولكنهم جرّوهُ إلى سياراتِهم وأخذوه..

مضتْ السّاعات وعبد الله لمْ يَعُدْ إلى منزله.. وابتدأت ليلى تحسُّ بآلام الوضْعِ كانت نوبةُ الألَمِ تعاودُها كلَّ ربْعِ ساعةٍ مرّة.. ثمَّ أصبحتْ تعاودُها كلَّ عشرِ دقائق.. ثمَّ كلَّ خمس.. ومَعَ ازديادِ نوباتِ الألم ازدادَ خوفُ ليلى.. فهيَ وحيدةٌ.. وبناتُها نائماتٌ.. فكيف تتدبَّرُ الأمرَ ؟.. لقَدْ أعدّت ما تحتاجُهُ لهذهِ الساعةِ ولكنْ مَنْ يأخُذهَا إلى المستشفى ومنعُ التجوُلِ مفروضٌ حتى على أطفالِ نابلس ؟؟

نظرتْ ليلى مِنْ ثُقبِ الشُّباكِ علّها ترى أمراً يطمئنُها على عودةِ زوجِها.. ثم نظَرتْ إلى بناتِها الأربعِ تطمئنُّ عليهن.. ولكنَّ وميضاً منَ الألَمِ مرَّ في ظهرِهَا ثُمَّ في بطنِها جعَلَها تتوقَّفُ ممسكَةً بطرفِ السَّريرِ لا تغادِرُهُ، وانطلقت مِنْ بينِ شفتيها صرخةُ ألمٍ...

تحرّكت فدوى في سريرِها وفتحَت عينيها، ثُمَّ عادت للنَّوم. واعتدلتِ الأمُّ في وقفتها وهمَّت بمغادرةِ الغرفةِ.. لكنَّ نوبةَ ألمٍ ثانيةٍ داهمتها. فانفلتَتْ منها صرخةُ ألمٍ وصاحت: فدوى.. فدوى..

قامَتْ فدوى من نومِها لا تدري ماذا تفعلُ وماذا تقولُ.. لم يكن أمامَ الاثنتين مجالٌ للتفكير.. فالألمُ يعاوِدُ الوالدةَ بإصرارٍ، ومعنى ذلك ان الولادةَ قريبةٌ .. قريبةٌ جداً..

صرخت فدوى:

– أمُّ اسماعيل.. أمُّ اسماعيل !

ودونَ تردُّدٍ انطلقتْ فدوى إلى البابِ تنادي الجارةَ أمَّ اسماعيل.. كانت ليلى ومنذُ بدايةِ الانتفاضة، قد انقطعت عَنِ الحديثِ مع جيرانِها ومَعَ أمِّ اسماعيلِ بالذات. كانت تسمَعُها تتحدَّثُ عن أخبارِ الانتفاضةِ وتشاهدُ حَمَاسَها للثورةِ فتبتعدُ عنها. لمْ تكن تريدُ أنْ تسمَعَ منها عن ابنها السجين اسماعيل ولا عن نشاطِ ابنها أحمد في الانتفاضة.. وكانتْ أمُّ اسماعيل بلا شك تحسُّ بذلك الجفاءِ من ليلى.. فهل ستحضَرُ الآنَ لنجدتَها ؟..

لم تمضِ ثوانٍ حتى دخلت أمُّ اسماعيل البيتَ تبسملُ .. متى استيقظت مِنْ نومِها ؟ متى ارتدتْ ملابسَها وحجابَها ؟.. هل تنامُ بهما استعداداً لأي طارىء ؟ ربما.

قالت أمُّ اسماعيل:

- *"لا تخافي يا ست ليلى.. منذ بدأت الانتفاضة تعلمت كل الاسعافات الأولية.. تعلمناها كلها.. وأول شيء الولادة.. ابني اسماعيل الله يرضى عليه وهو في السجن قال "يمه.. بكره الحارة بتحتاج لكل صغير وكبير.. والاسعافات الأولية ضرورية.. المستشفيات مش راح تكفي الناس. وفعلاً المستشفيات لا ترضى الا الحالات الصعبة .. أما حالات الولادة الاعتيادية فنحن المتطوعات نقوم بها.. لا تخافي يا جارتنا".*

سخّنتْ أمُّ اسماعيل الماءَ.. أحضرت البشاكيرَ النظيفةَ والزيتَ والديتول والصابونَ.. وقرأت آيات القرآن، وأمسكتْ يدَ ليلى..

وانطلقَ صوتُ الصَّغيرِ يملأ الغرفةَ صراخاً.. فرفعتْ ليلى رأسها قليلاً وسألتْ.. ولدٌ أم بنت؟..

- *ولد يا ليلى .. ولد .. مبروك ..*

واغرورقت عينا ليلى بالدُّموعِ، وتحشرجَ الصوتُ في حنجرَتِها، وغصَّتِ الكلماتُ في حلْقِها.. ثُمَّ قالت.. الحمدُ للهِ .. الحمدُ للهِ..

* * * * * * * * * * *

﴿١٤﴾

نامَتْ ليلى نوماً عميقاً استعادت فيه الكثيرَ من نشاطِها وقوّتِها كانَ لوجودِ أمِّ اسماعيل أكبرُ الأثرِ في راحَتِها واطمئنانِها.. فقد قامت باللازمِ وأكثر.

ولكنَّ المشكلةَ ظهرتْ بعدَ يومينِ أو ثلاثةٍ فعبد الله لمْ يَعُدْ لبيتِه، وليلى في فراشِها لا تستطيعُ أن تسألَ عنهُ أحداً.. ومنْ تسألُ؟

.. هلْ يكونُ في بيتِ والدِهِ أم في المستشفى مع والدِهِ؟

وبعدَ أيامٍ رُفِعَ منعُ التجولِ عن نابلس مدةَ ساعتينِ فقط، وَسُمِحَ للنَّاسِ بقضاءِ حوائجهم الضروريةِ.. فذهبتِ أمُّ اسماعيل مَعَ فدوى إلى حارةِ الياسمينةِ تسألُ عن جدَّتِها وعنْ جدِّها وعنْ والدِها..

لم يكن عبدُ الله في المستشفى ولا عندَ والدتِه.. اختفى من نابلس مرَّةً واحدةً..

سلسلةٌ من المآسي والصعوباتِ بدأتْ تغزو دارَ ليلى أثناءَ غيابِ زوجِها. سلسلةٌ من المآسي والمشاكلِ فَرَضَها الاحتلالُ على كلِّ دارٍ وبيتٍ في نابلس وخارج نابلس.. بَيْتٌ قُتِلَ منه شابٌ أو شابَةٌ.. وآخر اعتُقِلَ أحدُ أبنائِهِ أو أكثر.. مريضٌ لا يَجِدُ الدواء.. ومريضةٌ لا تَجِدُ المستشفى.. طبيبٌ لا يستطيعُ الخروجَ من منزِلِه لعلاجِ مرضاه.. وطالبٌ لا يذهبُ لمدرستِهِ لاقفال المدارس.. طفلٌ يموتُ من قنبلةِ غازٍ، وطفلةٌ تفقدُ عينها برصاصةٍ مطاطيةٍ.. سلسلةٌ من المآسي والمشاكلِ والصعوباتِ تجتاحُ نابلس وكلَّ المدنِ القريبة..

ولكنَّ الشعوبَ الحيَّةَ لا تموت ولا تركَعُ أمامَ بندقيَّةِ المحتلِّ.. والشعبُ العربيُّ في نابلس وكل مدن فلسطين لا يذِلُّ لعدوِّهِ.. أهلُ نابلس يرفضونَ أنْ يذِلُّوا أمامَ هذا العدوِّ مهما شدَّدَ من قبضتِهِ الحديديةِ، ومهما استوردَ من قنابلِ الغازِ والرَّصاصِ من أميركا وغيرها، أهلُ نابلس يرفضونَ الخضوعَ لعدوِّهم.. لطالما سمَّى العربُ مدينتهم "جبلَ النَّارِ" ولطالما تغنُّوا بشجاعةِ وجرأةِ أهلِها..

أحضرت أمُّ اسماعيل دجاجة "مطبوخة" مع مرقتها وقدمتها لليلى قائلةً:

– *بل تأكلين وتأكلين وتأكلين حتى يزداد حليبك وتقوى صحتك..*

– غيابُ عبد الله يُقلقني يا أمَّ اسماعيل..

– "*ولو يا جارتي يا ليلى..* الله معه والله يحفظه من كل مكروه.. لا تخافي.. يمكن *أنهم أخذوه*

الى السجن.. كل شاب عربي معرّض للسجن في كل لحظة فلا تخافي عليه..".

– كيف لا أخافُ عليهِ اذا كانَ في اسجن.. يعني السجن عندك لُعبة ؟

– *لا.. لكنّ السجنَ للرجال.. وزوجك رجل قوي.. وانتِ يجب أن تأكلي الآن حتى ترضعي ابنك ويكبر ويصير رجلاً..*

أياماً وأسابيعَ وليلى تنتظرُ زوجها.. ألمْ يكنْ ينتظرُ ميلادَها لحظةً بلحظةٍ ؟ ألمْ يكُنْ ينتظرُ أنْ يرزقَهُ اللّهُ بولدٍ ؟ فلماذا لمْ يحضرْ ليرى فلذةَ كبدِهِ وقرةَ عينِهِ ؟ أينَ هوَ يا ترى.. وكيفَ السبيلُ للوصولِ إليهِ..

* * * * * * * * * *

كلُّ مَنْ يُعتقلُ يتعرّضُ للتعذيب.. هذا فرضٌ سواء أكانَ المعتقلُ رجلاً أم امرأةً أم شاباً أم طفلاً.. وعبدُ الله سمعَ مئات الحالاتِ والقصصِ عنِ الاعتقالاتِ والسُّجونِ وهوَ يعرفُ أنَّهُ لنْ يرى أهلَهُ قبلَ مرورِ أيامٍ قد تطولُ لأشهرٍ.. وهوَ مستعدٌّ للاعتقالِ والتعذيبِ والسِّجنِ.. ومستعدٌّ لتحمُّلِ الجوعِ والبردِ ولكنَّ عدّةَ أمورٍ كانت تُقلقُهُ: والدُهُ الذي تركَهُ في المستشفى، والدته التي لا تعرفُ أينَ زوجُها أو ابنُها.. ثم والأهمُّ زوجتُه ليلى وضعفُها.. ولكنَّ ليلى كانتْ قد تغيّرتْ.. لقد غيّرتها الأيامُ وقوّتْ من عزيمتِها الشدائدُ..

أصبحتْ ليلى تجلسُ مَعَ أمِّ اسماعيل الساعاتِ الطويلةَ تتحدثانِ، عن الانتفاضةِ واليهودِ والعربِ.. أصبحتْ ترتاحُ لحديثِها ولروحِها المعنويةِ وإخلاصِها في حياتِها؛ فلمّا قالت لها أمُّ اسماعيل ذلكَ الصباحِ:

– *سأذهب اليوم لأسجل اسم ابنك في دائرة سجل النفوس، واستخرج له شهادة ميلاد..*

قالتْ ليلى:

– لا يا أمَّ اسماعيل.. بلْ أذهبُ أنا بنفسي.. لقدْ تحسَّنتْ صحّتي والحمدُ لله... وسأقومُ بأموري بنفسي..

تغيّرت ليلى حقاً.. أحسّت أنَّ عليها مسؤولياتٍ جسيمةً تجاهَ عائلتِها وأولادِها، بل وتجاهَ عائلةِ زوجِها أيضاً..

أضافتْ ليلى:

– يا أمَّ اسماعيل.. وسأذهبُ اليومَ إلى "العمارةِ".. مركزِ الحاكمِ العسكريِّ.. أسألُ عنْ عبدِ الله.. فلا بدَّ أنْ أتابعَ الأمورَ بنفسي فأنتِ عندك ما يكفيك...

في ذلكَ النهارِ حملتْ ليلى ابنها الصغيرَ، وذهبت إلى بيتِ والدِ زوجِها لتطمئنَّ عليه وعلى زوجتِه.. لمْ تكنْ قد زارتهُم منذُ بدأتِ الانتفاضةُ.. كانت تخافُ ترك بيتها أو زيارةَ أحدٍ.. ولكنَّها في ذلكَ النَّهارِ أخذتْ أولادَها وذهبتْ إلى بيتِ جدِّهم.. تسألُ عن زوجِها . ثم ذهبتْ إلى "العمارةِ".

كَمْ بابٍ طرقت.. كم شخصٍ سألتْ.. والجوابُ واحدٌ.. لا نعرفْ: عودي غداً..

كم يومٍ داومت فيه ليلى على الوقوفِ أمامَ العمارةِ علَّها ترى زوجها أو تسمعُ عنْهُ.. والنتيجةُ كانت أنَّها لَمْ تَرَهُ ولمْ تسمعْ عنهُ أبداً.. لقدْ حفظَتْ وُجوهَ الحرّاسِ الجنُودِ فلم تعدْ تخشاهُم أبداً..

وَلَمْ تَعدْ تخافُ توعُّداتهم لَها باعتقالها إنْ عادَتْ للوقوفِ قرب "العمارةِ"..

وفي أوَّلِ موعدٍ لزيارةِ أم اسماعيل لابنها في السِّجنِ، ذهبتْ ليلى معها إلى السِّجنِ تسألُ عن زوجها.. نَفَى اسماعيل وجودَهُ وسألَ عنه في كلِّ الأقسامِ فنفوا معرفتَهم بحضورِه.. ولكنَّهم نصحوها أنْ تسألَ عنْهُ في سجنِ "الفارعة".

كانت أوّل مرّةٍ في حياةِ ليلى تركَبُ فيها الحافلةَ المتَّجهةَ إلى مخيَّمِ الفارعةِ قربَ نابلس.. يومَهاحملت ابنها الصغيرَ معها.. فقدْ يطولُ غيابُها هناك.. واقتربت من مخيَّمِ المعتقلين.. يومَها صَرَخَ فيها الجنود الاسرائيليون أنْ تبتعدَ، ولكنَّها لم تبتعد.. لَمْ تعُدْ تخافُ من بنادقهم ولا صراخهم.. اقتربتْ أكثرَ.. صَرَخوا بها أكثرَ.. فاقتربت أكثر.. تجمَّع السجناءُ لرؤيتهم امرأةً تحملُ طفلاً صغيراً وتقتربُ من الأسلاكِ الشائكةِ في غير موعدِ الزِّيارةِ ولا مكانها..

صرخت ليلى.. هل تعرفونَ عبدَ الله ؟ هلْ عبد الله معكم ؟؟..

وعلا صوتُ عبد الله من بعيدٍ .. ليلى.. ليلى أنا هنا..

وامتلأتِ الدُّموعُ في العيونِ وخفقَتْ في صدورِ السُّجناءِ العَبَراتِ.. وغابَتِ الكلماتُ..

﴿١٦﴾

في.. موعدِ الزيارةِ الأوَّلِ، لبسَتْ ليلى وبناتها وابنها أحلى ما عندَهُم واتَّجهوا جميعاً مع جدِّهم وجدَّتهم إلى سجنِ "الفارعة".. كانَ يومَ عيدٍ عندَ الجميع يومَ رؤيةِ عبد الله بعدَ غيابِ شهرٍ أو أكثر..

حملَتْ ليلى ابنها بثقةٍ ومشَت معَ البناتِ، ومنْ خلْفِ زُجاجِ السِّجنِ وضعتْ ليلى يدها على يدِ زوجِها، ثمَّ رفعت لَهُ ابنهُ ليراهُ.. وضَعَ الأبُ خدَّهُ على الزُّجاجِ علَّهُ يُحسُّ بحرارةِ ابنهِ ثمَّ وقفتْ فدوى وأخواتها فأرسلوا القبلاتِ الحارةِ عبرَ الزجاج..

في الزيارةِ الثانيةِ قالت ليلى:

– لقدْ أعادَ الشَّبابُ تشغيلَ الفرنِ يا عبد الله.. أعطيتُهم المفاتيحَ حتَّى يبقى فرنُ الانتفاضةِ يعملُ كما كنتَ تخطِّطُ له.. فرنُ لصمودِ أهلِ نابلس أمام عدوِّهم.

ثمَّ همسَت وهيَ تلتفتُ يُمنةً ويسرةً:

– أمَّا الغُرفَةَ السريَّةَ الجديدةَ في "تسويةِ" الفُرنِ فقدْ وضَعَ الشَّبابُ فيها مطبعةً لطباعةِ بياناتِ القيادةِ العامةِ للانتفاضةِ.. وفدوى تساعدُهم في توزيعها !! وأنا أساعدُهم بإخاطةِ الأعلامِ

الفلسطينيةِ !! أترى يا عبد الله لنْ تتوقف الانتفاضة وسننتظرُ خُروجَك مِنَ السِّجنِ لتواصِلَ العملَ معنا..

في الزِّيارةِ الثالثة همست ليلى لزوجها..

– اليومَ قَتَلَ أحَدُ شبابِ الانتفاضةِ مستوطناً اسرائيلياً من مستعمرة "آلون موريه".. كانَ يتَسوَّقُ في الدُّكان القريب من منزلِنا، فأطلقَ عليه أحدُ الشَّبابِ رصاصةً وقَتَلَهُ.. يقولون أنَّهُ يعملُ محققاً عسكرياً في "العمارة". هل تعرفُهُ ؟

في كلِّ زيارةٍ.. كانتْ ليلى تروي لعبد اللهِ آخِرَ أخبارِ الانتفاضةِ. لقدْ تغيَّرتْ ليلى حقاً، بل إنَّ الانتفاضةَ غيَّرت وستغيِّرُ الكثير.

أسئلـــــة :

١ ـ لماذا سمي عبدالله البحش فرنه «فرن الصمود» ؟ .. ص٦.

٢ ـ لماذا يصر جنود الاحتلال على شباب فلسطين ونسائها بإنزال الأعلام الفلسطينية عن المرتفعات وتنظيف الشوارع من الحجارة والاطارات المطاطية ؟ .. ص٧.

٣ ـ أُذكر إسم المستعمرة الاسرائيلية التي بُنيت قرب نابلس والتي يسكنها قاتل عائشة إبنة عبدالله .. وابحث عن خمسة أسماء لمستعمرات إسرائيلية أخرى بُنيت قرب المدن الفلسطينية .. ص٥.

٤ ـ ما سر الأكياس الاسمنتية التي كانت تدخل وتخرج من وإلى فرن عبدالله ؟ .. ص١٩، ص٣١.

٥ ـ حلاقة الشعر في الحرم الابراهيمي في مدينة الخليل واحتفالات ختمة المصحف من التقاليد والعادات الشعبية .. أُذكر تقاليد وعادات شعبية عربية أخرى .. ص٢٠.

٦ ـ لماذا أوقف الاحتلال الصهيوني استعمال مكبرات الصوت في الجوامع ؟ .. ص٢١.

٧ ـ أُذكر بعض أنواع الأسلحة التي يستعملها العدو ضد أبناء الانتفاضة .. وأين تُصنع ؟ .. ص٢٢.

٨ ـ يشدد العدو قبضته الحديدية على أبناء فلسطين بعدة وسائل منها :

أ ـ الإبعـــاد   ب ـ الضرب وتكسير العظام

جـ ـ الاعتقـــال   د ـ منـــع التجـول

أُذكر ثلاث وسائل أخرى ..

٨٤٣ر٩٥٣٢١

روض   روضة الفرخ الهدهد

ليلى وفرن الصمود : قصص اطفال/روضة الفرخ الهدهد ـ

عمّان : دار كندة، ١٩٩٠

٣٢ص

ر.أ.   ١٩٩٠/٢/٧٨

١ ـ القصة العربية ـ الأردن ـ العصر الحديث

أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

الطباعة : المؤسسة الصحفية الاردنية (الرأي)

سلسلة المسرح

ليلى والكنز

ليلى وفرن الصمود

سر الشياطين الحمر

صراع في الغابة

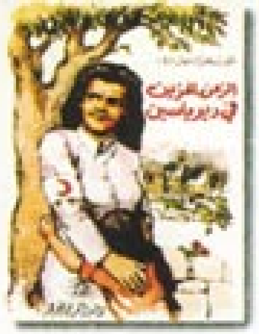

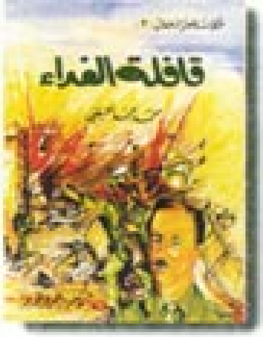

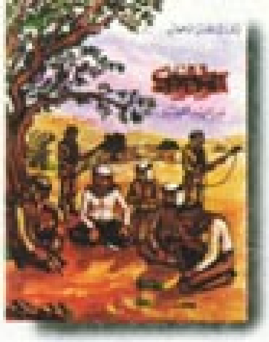

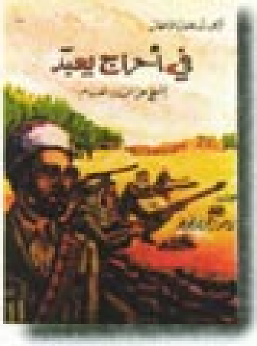

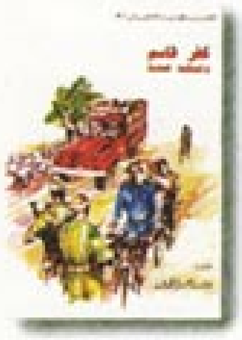

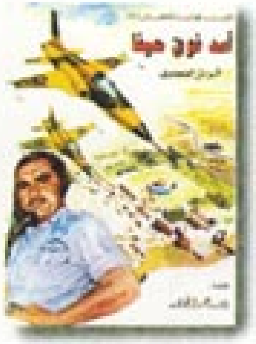

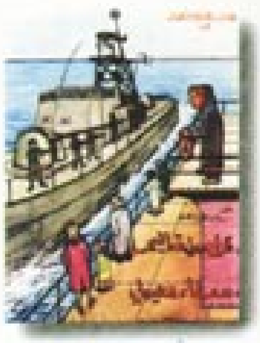

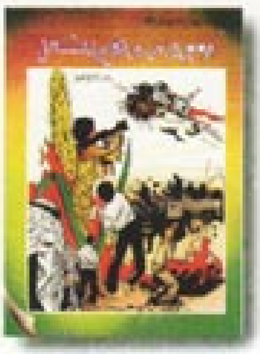

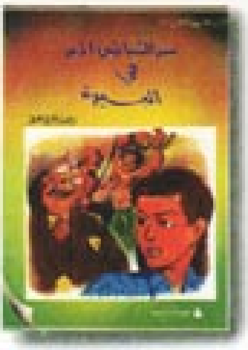

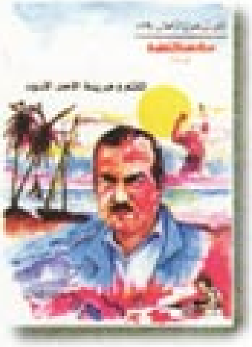

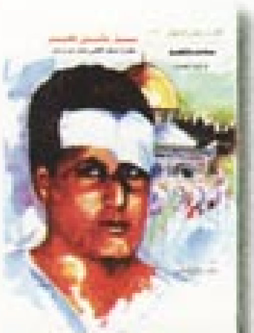

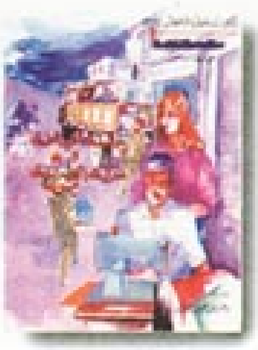

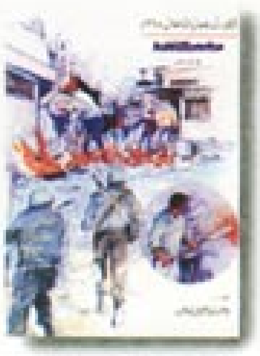

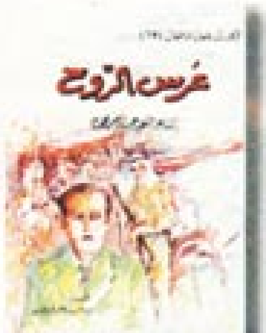

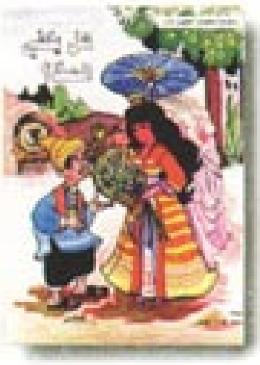

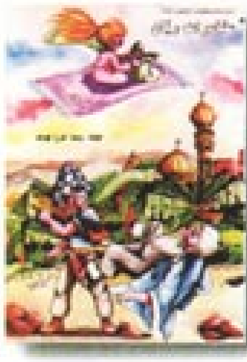

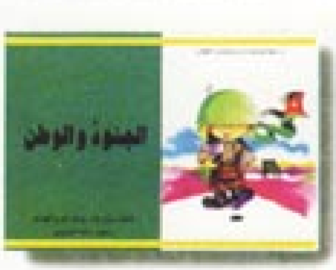

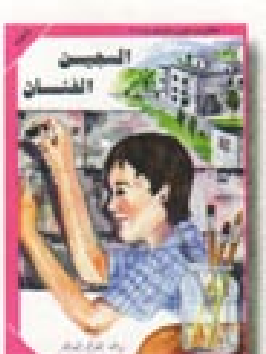

السعر : دينار أردني

تطلب هذه الكتب من دار كندة للنشر والتوزيع

الأردن / العبدلي / مقابل عمارة الصائغ هاتف ٥٦٥٧٠٣٠

ومن المؤلفة روضة الفرخ الهدهد ص.ب ٤٤٦

عمان - الأردن هاتف ٥٩٢٩٢٨٢ تلفاكس ٥٩٢٢١٤٥